شَرْحُ

مَتْنِ القَوَاعِدِ الأَرْبَع

للشيخ محمد بن عبد الوهاب

- رَحِمَهُ اللهُ تعَالىٰ -

لفضيلة الشيخ

أبي عبد الأعلىٰ خالد بن عبد الرحمن المصري

- حَفِظَهُ اللهُ تعَالىٰ -

دار أهل الحديث والأثر

بسم الله والحمد لله والصّلاة والسلام علىٰ رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

متن (**القواعد الأربع**) تأليف شيخ الإسلام الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالىٰ-، شرح الشيخ أبي عبد الأعلىٰ خالد بن محمد بن عثمان -حَفِظَهُ اللهُ- ونفع بعلمه.

[المتن]

قال الإمام المجدد -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالىٰ-:

بسم الله الرحمن الرحيم

أسأل الله الكريم ربّ العرش العظيم أن يتولاّك في الدنيا والآخرة، وأن يجعلك مبارَكًا أينما كنت، وأن يجعلك ممّن إذا أُعطيَ شكر، وإذا ابتُلي صبر، وإذا أذنب استغفر، فإنّ هؤلاء الثلاث عنوان السعادة.

[الشرح]

بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام علىٰ رسول الله -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وعلىٰ آله وأصحابه ومن اتبع هداه.

أما بعد..

فهٰذا هو المجلس الأول في شرح (**القواعد الأربع**) أو (**الأربع قواعد**). والمقصود بالقواعد الأربع ليس الحصر؛ وإنما المقصود كما بينا في شرح (**الأصول الستة**) التعليم والضبط؛ ضبط العلم، يعني الدين لا ينحصر في هٰذه القواعد الأربع، وما قصد الإمام محمد بن عبد الوهاب -رحمه الله- هٰذا المعنىٰ؛ فلا حجّة لجماعة التبليغ والدعوة ومن علىٰ شاكلتها من الأحزاب المنحرفة عن السنّة في أنهم يقولون: "إن

أهل السنة يُنكرون علينا أنّا وضعنا ما يسمىٰ بالصّفات الإيمانية الستّة"؛ فنقول ونردّ عليهم: إنّ قولكم بهٰذه الصفات الإيمانية الستة إنّكم حصرتم الدين في هٰذه الصفات الإيمانية الستة وجعلتم محور دعوتكم حولها فقط، وبلا شك هي قاصرة لا تشمل الدين كلّه؛ وأمّا الإمام محمد بن عبد الوهاب لمّا صنّف الأصول الستة والأصول الثلاثة والقواعد الأربع ما قصد أن يحصر الدين في هٰذه فقط؛ وإنما كان في كل متن من هٰذه المتون يذكر أهم الأصول أو أهم القواعد علىٰ سبيل تيسير العلم وضبط الحفظ فقط في هٰذا الباب، بدليل أنه ما حصر هٰذا في شيء بعينه، ما قال مثلا أن هٰذه الأصول الستة هي التي يجب أن يلتزم بها كل المسلمين فقط ويتركون الأصول الثلاثة أو ويتركون القواعد الأربع، لا، هٰذا أسميه التنويع، التنويع إيش؟ التنويع العلمي أو ضبط العلم؛ الشاهد **أن القواعد الأربع هذه تشمل قواعد هامة يحتاج إليها كل مسلم**، وهي كأنها قواعد بُنيت علىٰ الأصل الأول الذي بيّنه الإمام محمد بن عبد الوهاب في الأصول الثلاثة وفي الأصول الستة، هو أصل التوحيد وإخلاص الدين لله.

فهٰذه الأربع قواعد كأنها مبيّنة أو تزيد في البناء أو بُنيت علىٰ هٰذا الأصل؛ فالقاعدة تُبنىٰ علىٰ أصل، الأصل تُبنىٰ عليه القاعدة.

وبدأ المصنف هٰذا المتن كما اعتدنا في المتون السابقة بالبسملة، وقد بينا في شرح (**الأصول الثلاثة**) أوجه أو أدلّة سنّية البداءة بالبسملة في المصنفات والمؤلفات والكتب والرسائل، وذكرنا الأدلة عليه فلا حاجة للإعادة.

ثم قال المصنف داعيًا ربه: (أسأل الله الكريم ربّ العرش العظيم أن يتولاّك في الدنيا والآخرة)، وهٰذا يُعدّ من براعة الاستهلال ومن حُسن الابتداء الذي يجعل القارئ يشعر بحرص المصنّف علىٰ القراء وبرحمته بهم، كما قال سبحانه في حق الرسول -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَعلىٰ آله وسَلَّمَ- : ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ

لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾[1]

فالمصنف كأنه تأسّىٰ بهٰذه الآية، فدعا لمن يقرأ متنه هٰذا أن يتولاه الله في الدنيا والآخرة، وهٰذا من الدعاء العظيم النفع لمن يستجيب الله له، فمن تولاه الله في الدنيا والآخرة فهو المصلح المنصور قل ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللّهُ﴾[2]؛ والله -عز وجل- هو المولىٰ، لا ولي إلا الله، فالله هو الولي، وهو يحي الموتىٰ، وهو علىٰ كل شيء قدير، الولاية الحقيقة لله، ليس الأولياء هم الأموات من الصالحين أو من غيرهم، نعم هم أولياء لله؛ ولكن ليسوا أولياء للبشر، يُستغاث بهم ويدعون من دون الله؛ فالولاية الحقيقية لله -عز وجل- ، فالله هو الولي -سبحانه وتعالىٰ-. ومعنىٰ ولاية لله -عز وجل- أنه سبحانه يحفظ عبده ويوفقه إلىٰ طاعته وينصره ويؤيده، وإذا رجع إليه غفر له ورحمه وأدخله جنّته، هٰذا معنىٰ الولاية في الدنيا والآخرة، أنّ الله يتولاه في دنياه فيوفّقه ويسدّده إلىٰ الطاعة ويثبّته علىٰ هٰذه الطّاعة حتىٰ يُرزق بحسن الخاتمة، ثم إذا رجع إليه سبحانه تولاّه بمغفرته ورحمته وبفضله وإدخاله الجنة وتثبيته عند السؤال في القبر.

(**وأن يجعلك مبارَكًا أينما كنت**)

البركة هي دوام الخير وثبوته، أن يدوم الخير ويثبت، هٰذا معنىٰ البركة؛ فإذا كان العبد مباركًا أينما كان، كان هٰذا من تمام ولاية الله له، ما معنىٰ أن يكون مباركا أينما كان؟ أن يعمّ بوجوده الخير في كل مكان يذهب إليه، ويثبت هٰذا الخير في هٰذا المكان، أن ينفع الله به في أي مكان يذهب إليه، أن ينشر الله به الخير والهدىٰ والتُّقىٰ، هٰذا معنىٰ دعاء "أن يجعلك مباركا أينما كنت". فإذا كان العبد مباركًا كان هٰذا

---

(1) [آل عمران : 159]
(2) [الأعراف : 196]

من ولاية الله له -عز وجل-، وهٰذا لا يكون إلا بتوفيق الله، العبد لا يستطيع أن يجعل نفسه مباركًا، أنت لا تستطيع أن تجعل نفسك مباركًا؛ ولكن الله سبحانه هو الذي يجعلك بتوفيقه وبولايته وبتسديده لك مباركًا، أن ينفع بك أينما كنت وأن يجعلك مفتاحًا للخير مغلاقًا للشر، هٰذا معنىٰ هٰذا الدعاء.

(**وأن يجعلك ممّن إذا أُعطيَ شكر، وإذا ابتُلي صبر، وإذا أذنب استغفر، فإنّ هؤلاء الثلاث عنوان السعادة**)

يعنىٰ من رزق هٰذه الثلاثة تمّت له السعادة في الدنيا والآخرة؛

إذا أُعطي شكر، إذا رزقه الله بالنعم شكر عليها، كيف يشكر؟ ليس الشكر باللسان فقط؛ إنما الشكر يكون باعتقاد القلب أنّ المنعم والذي تفضّل بهٰذه النعمة هو الله أولا، ثم أن يشعر بمنّة الله عليه، أن يعتقد في قلبه منّة الله -سبحانه- عليه، وأن يعمل في هٰذه النعمة بجوارحه بطاعة الله، يعني أن يُسخّر هٰذه النعمة في طاعة الله، لا أن يستخدمها في معصية الله، هٰذا من الشكر. وثالثًا أن يشكر بلسانه، أن يقول "الحمد لله"، "اللهم لك الحمد علىٰ هٰذه النعمة"، "الحمد لله الذي رزقنا هٰذا"، "الحمد لله حمداً كثيراً طيبا مباركا فيه"، إلىٰ آخر أدعية الحمد، بهٰذا يكون العبد قد شكر ربه. وإذا كانت هٰذه النعمة وصلت إليه عن طريق عبد من العباد، من تمام شكره لله أن يشكر هٰذا العبد لحديث النبي -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَعلىٰ آله وسَلّمَ- : ((**من لم يشكر الناس لم يشكر الله**))، يعني إذا كان أخوك سببًا في إيصال الخير إليك، في إيصال نعمة من النعم إليك، من تمام شكرك لله أن تشكر أخاك هٰذا، وأن تقول له "جزاك الله خيراً"، "أحسن الله إليك"، هٰذا من تمام شكرك لله علىٰ هٰذه النعمة.

(**وإذا ابتُلي صبر**) يعني إذا نزل البلاء علىٰ العبد المؤمن، والبلاء لا ينفكّ عن المؤمنين لأنها سنة من سنن الله الكونية التي تتخلّف عن أحد؛ ولكن العبد لا يتمنىٰ البلاء ويسأل الله العافية؛ ولكن إذا نزل البلاء -

أعاذنا الله وإياكم- فعليه أن يصبر، ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لهم﴾[3]، ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللّهِ﴾[4] كما قال سبحانه، ولذلك كان من دعاء السابقين ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً﴾، ولذلك ثبت في الحديث في الصحيحين عن النبي -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ((ما أُعطي عبدٌ نعمةً أوسع من الصبر))، من أعظم النعم الذي يمنّ الله به علىٰ العبد أن يرزقه الصبر، ولذلك كان الأنبياء والرّسل المثل الأعلىٰ للعباد في الصبر وتحمل الأذىٰ، وكانوا يؤذوْن بشتىٰ صنوف الإيذاء؛ ولكنهم صبروا ابتغاء وجه الله، ولذلك أتاهم النّصر من الله كما قال الرسول الله -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ- ((إن النّصر مع الصّبر))، إذا صبرت نصرك الله -سبحانه وتعالىٰ-، وأمّا إذا استعجلت فهٰذا هو الذي يُحرم النصر من الله سبحانه، ولذلك الواجب علىٰ العبد المسلم أنه إذا نزلت به مصيبة أن يقول أو يُستحب له أن يقول "إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم أجرني في مصيبتي واخلفني خيراً منها" وكما قال الرسول -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَعلىٰ آله وسَلَّمَ- ((إن أمر المؤمن كله له خير وليس ذلك إلا للمؤمن؛ إذا أصابته الضراء صبر وإذا أصابته السرّاء شكر))،أو كما قال -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَعلىٰ آله وسَلَّمَ-.

(وإذا أذنب استغفر) هٰذه هي العلامة الثالثة من علامات سعادة المؤمن، أنه لما يقع في الذنب يسارع بالاستغفار والتوبة؛ فمن كان هٰذا حاله فليعلم أنه علىٰ خير إن شاء الله كما قال تعالىٰ ﴿وَسَارِعُواْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾[5]

والإسراع بالتوبة من علامات إنابة المؤمن، العبد المنيب هو الذي يسارع بالتوبة، يسارع بالرجوع إلىٰ الله ﴿وَاتَّقُواْ يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَىٰ اللّهِ﴾[6]، العبد الذي يخاف لقاء الله ويخشىٰ حسابه وعذابه يسارع

---

[3] [الأحقاف : 35]
[4] [النحل : 127]
[5] [آل عمران: 133]
[6] [البقرة : 281]

بالتوبة وبالاستغفار؛ فمن حقق هٰذه الثلاثة فقد حقق السعادة في الدنيا والآخرة: **الشكر والصبر والاستغفار**.

[المتن]

اعلم أرشدك الله لطاعته: أن الحنيفيّة ملّة إبراهيم: أن تعبد الله مخلصًا له الدين وبذلك أمر الله جميع الناس وخلقهم لها، كما قال تعالىٰ ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[7]؛ فإذا عرفت أنّ الله خلقك لعبادته فاعلم: أنّ العبادة لا تسمّىٰ عبادة إلا مع التوحيد، كما أنّ الصلاة لا تسمّىٰ صلاة إلىٰ مع الطهارة، فإذا دخل الشرك في العبادة فسدتْ كالحدَث إذا دخل في الطّهارة.

[الشرح]

قال المصنف -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالىٰ- أيضا داعيا للقارئ وآمرًا له (**اعلم**) هذا فعل أمر القصد منه التنبيه والحث والحض علىٰ الاهتمام بما سوف يُذكر بعد ذلك، (**اعلم**) حتىٰ ينبّه القارئ، ينتبه لما سوف يذكره المصنف بعد ذلك، ثم لم يكتفِ بهٰذا التنبيه؛ بل عقّبه بالدعاء الذي به ينشرح صدر القارئ (**أرشدك الله لطاعته**).

(**أن الحنيفيّة ملّة إبراهيم**) وقد بينا معنىٰ الحنيفية في شرح (**الأصول الثلاثة**)، من يذكر لنا معنىٰ الحنيفية؟ لغةً: الحنيف من الحَنَف، والحَنَف هو الميل كما قال ابن منظور في لسان العرب.

واصطلاحا: الحنيفية الميل قصدا من الشرك إلىٰ التوحيد، العبد الحنيف هو الذي مال عن الشرك قصدا منه إلىٰ التوحيد، ترك الشرك بكل صوره، الشرك الأكبر والأصغر وصار موحدا، أي عبَد الله وحده.

---

(7) [الذاريات:56].

ما معنىٰ كلمة التوحيد؟ ما معنىٰ لا إله إلا الله؟ لا معبود بحق إلا الله، ليس معناها لا خالق إلا الله كما سوف يأتي، معناها لا معبود بحق إلا الله، وهٰذا الذي أراد أن يُظهره المصنف أنه قال بعد ذلك (أن الحنيفيّة ملّة إبراهيم: أن تعبد الله مخلصًا له الدين)، هٰذا معنىٰ الحنيفية.

للأسف هناك معتقد خاطئ ترسّخ في بعض أذهان العامة، خاصة عند أهل مصر، هم يعتقدون أن الحنيفية التي هي ملة إبراهيم هي ما كان عليه اليهود والنصارىٰ، والله سبحانه رد علىٰ هٰذه الشُّبه في كتابه ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيّاً وَلاَ نَصْرَانِيّاً وَلَكِن كَانَ حَنِيفاً مُّسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[8]

بعض المسلمين يعتقد جهلا أن النصارىٰ أولىٰ بإبراهيم، هم النصارىٰ يروجون هٰذا الكلام حتىٰ الآن أنهم هم الأولىٰ بإبراهيم والأولىٰ بموسىٰ، اليهود يروجون أنهم هم الأولىٰ بموسىٰ، والنصارىٰ يروجون أنهم الأولىٰ بإبراهيم والله سبحانه وتعالىٰ والله كذب كلا الطائفتين في كتابه ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيّاً وَلاَ نَصْرَانِيّاً وَلَكِن كَانَ حَنِيفاً مُّسْلِماً﴾ [آل عمران : 67].

إبراهيم عليه السلام كان موحدا لا يشرك بعبادة الله أحدا، لا ملكا مقربًا ولا نبيا مرسلا، لم يكن إبراهيم عليه السلام يستغيث بالأموات أو يطوف بالقبور أو يعتقد أن الله ثالث ثلاثة، ما كان إبراهيم هكذا عليه السلام ؛ فملّة إبراهيم هي عبادة الله وحده مخلصًا له الدين.

والملة لغةً: هي الطريقة، وقيل أن الملة هي الشريعة والدين؛ فإبراهيم عليه السلام كانت ملّته أي كانت شريعته وكان دينه التوحيد، توحيد الله عز وجل، أن يعبد الله وحده مخلصـًا له الدين، لا يدعُ إلا الله ولا يستغيث عند الشدائد إلا بالله وحده، لا يتوسل بدعائه للوسائط، بالأموات المقبورين الذين لا يملكون نفعًا ولا ضرا، وهٰذا هو الذي قرره سبحانه في قوله ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[9]، الله

---

(8) [آل عمران : 67]

(9) [الذاريات: 56]

سبحانه خلق الجن والإنس لغاية عظمىٰ وهي أن يعبدوه وحده سبحانه، لم يخلق الجن والإنس هملاً أو من أجل أن يعبدوا الأموات، هل الله خلق الجن والإنس حتىٰ يعبدوا الرسول -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَعلىٰ آله وسَلَّمَ-؟ أو حتىٰ يعبدوا الحسين؟! أو حتىٰ يعبدوا البدوي؟! لا، الله يخلق ثم يُعبد غيره، يُدعىٰ غيره ويُذبح لغيره؟! هٰذا من جحود عظمة الله وفضل الله عز وجل عليهم أن يُعبد غيره وهو الذي خلق، وأن يُشكر غيره وهو الذي رزق، الذين يذبحون عند عتبات الحسين والبدوي يشكرون الحسين والبدوي من دون الله، جعلوا الحسين والبدوي مثل الله عز وجل، فسوّوا الخالق بالمخلوق.

(فإذا عرفت أنّ الله خلقك لعبادته فاعلم: أنّ العبادة لا تسمّىٰ عبادة إلا مع التوحيد، كما أنّ الصلاة لا تسمّىٰ صلاةً إلىٰ مع الطهارة، فإذا دخل الشرك في العبادة فسدتْ كالحدَث إذا دخل في الطهارة)

يعني إذا علمتَ أن الله هو الذي خلق، هو الذي رزق، فاعلم كما قال الشيخ عبيد الجابري -حَفِظَهُ اللهُ- في تعليقه الذي علق به علىٰ متن القواعد الأربع لما قرأته عليه، علق بهٰذا التعليق وهو مسجل بصوت الشيخ: (إن العبادة لا تكون عبادةً إلا بالتوحيد، لأن بعض الناس يعبد الله وهو مشرك، العبادات العملية موجودة عنده، يعني الصيام الصلاة الزكاة الحج، أو يصلي ويصوم ويزكي ويحج، نعم؛ لكنه مشرك يتقرب لغير الله، يدعو غيره ويستغيث بغيره، فهو من جهة يعبد الله لكنها عبادةً باطلة، عمليا يعبد؛ لكن عبادته باطلة).

فالعبادة لا تسمىٰ عبادة إلا بالتوحيد كما أن الصلاة لا تسمىٰ صلاة إلا بالطهارة، يعني أنت الآن إذا صليت بدون طهارة، دون أن تتوضأ، هل هٰذه الصلاة يُعتد بها شرعا؟ لا، لا تسمىٰ صلاةً شرعًا، هي باطلة؛ فكذلك إذا أنت عبدت الله عز وجل؛ ولكنك نقضت عبادتك هٰذه بالوقوع في الشرك، كما أن الصلاة ينقضها الحدث، كذلك العبادة ينقضها الشرك. يعني أنت الآن تدخل المسجد تصلي لله ثم في الوقت نفسه تستغيث بغير الله، إذا وقعت في شدة قلت "مدد يا حسين، يا بدوي هات اليسر"، تطلب

اليسر من البدوي، وهل البدوي يسمع دعائك؟! البدوي لا يسمع الدعاء، إن البدوي أصم أبكم ميت لا يملك نفعًا ولا ضرًّا، ولا يسمع شيئا من هؤلاء المغفلين الذين ينفقون الأموال عند ضريح البدوي ويأخذها السّدنة والكهنة هناك، يستحلون أموال المسلمين باسم حب أولياء البدوي أو باسم محبة أهل البيت، وليس البدوي من أهل بيت النبي -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ-؛ بل هو دجال مخرف كما هو مذكور في كتب التاريخ، شيعي رافضي مخرف، كان يسعىٰ لإعادة مجد الدولة الفاطمية الرافضية الملحدة الباطنية التي قامت علىٰ تكفير أصحاب النبي -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ-، كما هو حال حسن نصر في لبنان، وحال الدولة الإيرانية، نستغيث بالله ونسأل الله أن يزيلهم وأن يعجّل بزوالهم لأنها تسببت في الإضرار بالمسلمين أكثر من اليهود والنصارىٰ، أبادوا مئات من المسلمين علىٰ أرض العراق مما لم يتمكن من فعله اليهود والنصارىٰ، يعني ... في بلاد المسلمين بالتخريب وبالقتل وبالتدمير مما لم يتمكن أن يفعله اليهود والنصارىٰ في سنوات عديدة، فعلوه في سنة أو سنتين، خرّبوا بلاد العراق ودمروا المساجد وأحرقوا المصاحف وكتب السنة، الذي فعل هـٰذا ليس الأمريكان، الذي فعل هـٰذا الشيعة الرافضة المجرمون، نسأل الله أن يعجّل بزوالهم وبهلاكهم وأن يصرف شرّهم عن بلاد المسلمين فهم شر من أعظم الشرّ الذي ابتليت به البلاد.

[المتن]

قال رحمه الله: (**فإذا عرفتَ أن الشرك إذا خالط العبادة أفسدها وأحبط العمل وصار صاحبه من الخالدين في النار عرفتَ أنّ أهمّ ما عليك: معرفة ذلك، لعلّ الله أن يخلّصك من هـٰذه الشَّبكة، وهي الشرك بالله الذي قال الله فيه: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾[10]، وذلك بمعرفة أربع قواعد ذكرها الله تعالىٰ في كتابه**).

---

(10) [النساء:116]

[الشرح]

وبعد أن عرفت أن الشرك يفسد ويحبط العمل، والشرك علىٰ نوعين: شرك أكبر وشرك أصغر. الشرك الأكبر يُحبط العمل كلّه من أوله إلىٰ آخره، يعني العبد إذا وقع في دعاء غير الله، صار يدعو الحسين من دون الله، أو صار يدعو الرسول -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ- من دون الله، هٰذا العبد إذا [دام] علىٰ هٰذا الشرك ولم يتب منه ومات علىٰ هٰذا الشرك أُحبط عمله كله، وكان من المخلدين في نار جهنم، لأنه أشرك بالله العظيم ﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ﴾[11] ، الذين يشركون بالله في الدعاء، هٰذا يعد أعظم أنواع الشرك الأكبر، للأسف عمّ المسلمون الجهل بهٰذه المسألة العظيمة، صاروا يستهينون بهٰذا الشرك الأكبر، يعني يأتي هٰذا الرجل الجاهل الذي يدعو الأموات من دون الله، ويقول لك: "أنا ما فعلت شيئا، أنا أصلي وأصوم وأعتقد أن الله الذي خلقني؛ ولكني أحب أن [...] أحبّ أهل بيت النبي -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَعلىٰ آله وسَلَّمَ-"، فنقول له يا أخي نحن ما قلنا لك أن تكره أهل بيت -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَعلىٰ آله وسَلَّمَ-؛ بل يجب عليك شرعا أن تحب أهل بيت النبي الله عليه وسلم؛ لكن ما معنىٰ محبة آل البيت؟ أن تدعوهم من دون الله؟! أن تتوسل إليهم بالعبادات التي لا تكون إلا لله؟! هٰذا ليس من محبة أهل البيت.

فالشرك الأكبر يُحبط العمل كله، إذا مات العبد عليه دخل النار، وأما الشرك الأصغر هو يُعد كبيرة من الكبائر؛ بل هو أعظمها، الشرك الأصغر أعظم من الكبائر العملية، الزنا وشرب الخمر وما شابه ذلك، الشرك الأصغر نحو الرياء، نحو أن تحلف بغير الله، أن تعمل العمل قاصداً الدنيا أو قاصدا وجه الناس، لا تقصد وجه الله، هٰذا كله من الشرك الأصغر الذي يُحبط العمل الذي أنت أشركت فيه فقط ولا يحبط العمل كله.

---

(11) [النساء : 48]

فكما قال الشيخ عبيد الجابري في شرحه الذي أشرت إليه: (فمن مات علىٰ الشرك لا يغفر الله له، وهٰذا شاملٌ للشرك الأكبر والأصغر؛ لكن يُفرّق بينهما بفروق: فالأكبر هو ناقلٌ عن ملة الإسلام إلىٰ الكفر، والأصغر ليس كذلك، هٰذا الفرق الأول.

والفرق الثاني: الشرك الأكبر موجبٌ للخلود في النار لمن مات عليه، والأصغر ليس كذلك، هما مشتركان في عدم مغفرة الله لمن مات عليه، فمن مات علىٰ الشرك الأكبر أو الأصغر لا يغفر الله له هٰذا الشرك.

نفرق بينهما بهذين الوجهين كما بينا، هما مشتركان في عدم مغفرة الله لمن مات عليه، يعني من مات علىٰ الشرك الأكبر هٰذا لا يغفر الله له البتة، يخلّد في النار؛ أما من مات علىٰ الشرك الأصغر دون توبة طبعـًا لا يغفر الله له الذي وقع فيه من الشرك الأصغر فقط، أما بقيّة المعاصي والذنوب فهي قابلة للمغفرة ما دام لم يمت علىٰ الشرك الأصغر، كمن حلف بغير الله أو عمل عملاً للناس لم يعمله لله وحده، ولم يتب من هٰذا الشرك الأصغر، هٰذا إن مات بدون توبة من الشرك الأصغر استحق العقوبة علىٰ هٰذا الشرك الأصغر فقط؛ ولكنه في بقية أعماله في مغفرة الله، يغفر الله لهم ما شاء من بقية المعاصي والذنوب.

[المتن]

قال المصنف -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالىٰ-:

القاعدة الأولىٰ: أن تعلم أن الكفار الذين قاتلهم رسول الله -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وسَلّمَ- مقرّون بأن الله تعالىٰ هو الخالق الرازق المدبر، وأنّ ذلك لم يدخلهم في الإسلام والدليل قوله تعالىٰ ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ

السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللهُ فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ﴾[12].

[الشرح]

بسم الله والحمد لله والصّلاة والسلام علىٰ رسول الله وعلىٰ آله وأصحابه ومن اتبع هداه.

أما بعد..

ذكر المصنف -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالىٰ- في القاعدة الأولىٰ من (**القواعد الأربع**) قاعدةً تتعلّق بالتوحيد؛ وهي قوله (أن تعلم أنّ الكفّار الذين قاتلهم رسول الله صلىٰ عليه وعلىٰ آله وسلّم يُقرون -أي يعني يعترفون- بأن الله سبحانه هو الخالق المدبّر)[13]، وهذا التأصيل من أهمّ ما ينبغي أن يفهمه طالب العلم حتىٰ يُدرك معنىٰ توحيد العبادة الذي به أُرسل الرسل ومن أجله أُنزلت الكتب؛ فالتوحيد كما قسّمه أهل السنّة ينقسم إلىٰ ثلاثة أقسام:

- **توحيد الربوبية؛**
- **توحيد الإلهية؛**
- **توحيد الأسماء والصفات.**

(12) [يونس:**31**]

(13) ذكر الطالب في المتن: "هو الخالق الرازق المدبر"

فالكفّار الذين قاتلهم رسول -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آله وسَلَّمَ- أقرّوا بتوحيد الربوبية، وأشركوا بالله في توحيد الإلهية، وكذلك في توحيد الأسماء والصفات.

وحتىٰ نفهم الفارق بين توحيد الربوبية وتوحيد الإلهية نذكر معنىٰ (**الربوبية**) :

الربوبية هي مصدر من ربَّ يَرُبُّ ربابةً أو ربوبيةً، وكما قال ابن فارس في كتابه (**مقاييس اللغة**) :

«**الربّ**: الراء والباء تدلُّ علىٰ أُصول؛ **فالأوّل** إصلاح الشيءِ والقيامُ عليه، فالرّبُّ [هو] المالكُ والخالقُ والصَّاحب. والرّبُّ [هو][14] المُصْلِح للشّيء، يُقال رَبَّ فلانٌ ضَيعتَه، إذا قام علىٰ إصلاحها، والله -عَزَّ وَجَلَّ- الربّ لأنه مصلحُ أحوال خَلقه».

ثم قال ابن فارس: «**والآخر** - أي الأصل الآخر- لزوم الشيء والإقامة عليه، وكما قيل: أَرَبَّت السحابة بهذه البلدة، يعني إذا دامت السحابة قيل أربّت»، " أربّت السحابة بهذه البلدة"، فهذا هو الأصل الثاني الذي تدور عليه الراء والباء.

«**والثالث** ضمّ الشيء إلىٰ الشيء».

هذا هو المعنىٰ اللغوي للفظ رب"الراء والباء". وكما قال ابن الأنباري وهو من علماء اللغة فيما نقله ابن منظور في (لسان العرب) قال: «الرب ينقسم إلىٰ ثلاثة أقسام: **يكون الرب المالك، ويكون الرب السيد المطاع، ويكون الرب المصلح**».

ولذلك كان تعريف الرب شرعًا كما قال ابن قيم الجوزية -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالىٰ- في (**بدائع الفوائد**): «الرب هو السيد والمالك والمنعم والمربي والمصلح، والله هو الرب بهذه الاعتبارات كلها»، فهذه كما ذكرنا من قبل تُسمىٰ بمفردات الربوبية.

ويضاف إلىٰ ما ذكره ابن القيم أن الرب هو الذي يُحيي ويميت، فمفردات الربوبية تدور علىٰ السيادة وعلىٰ الإنعام وعلىٰ الإصلاح و القيام علىٰ الشيء، وعلىٰ [الملك] والإحياء و الإماتة، ولا يجوز إطلاق

---

(14) لم تُذكر في (مقاييس اللغة)

لفظ الرب بالإضافة إلا علىٰ الله -سُبْحَانُهُ وَتَعَالىٰ-، أي بإضافة الألف واللام، أي إذا قلت الرب هذا لا ينصرف إلا إلىٰ الله -سُبْحَانُهُ وَتَعَالىٰ-، أما إذا أضفت لفظ (رب) إلىٰ غيره جاز أن يطلق علىٰ البشر، نحو أن تقول: رب الدار ورب البيت ورب هذه البلدة أي القائم عليها أو الراعي عليها.

والمشركون الذين أُرسل إليهم الرسول -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَعلىٰ آله وسَلَّمَ- أقروا بكلّ هذه المفردات، يعني لم يشركوا بالله -عَزَّ وَجَلَّ- في الربوبيّة، هم أقرّوا بأن الله -سبحانه- هو الخالق المالك السيّد الذي يحيي ويميت، المصلح الذي يصلح أحوال الخلق، والذي بيده الأمر، أقرّوا بكلّ هذا، وهذا الإقرار بمفردات الربوبية لم يُدخلهم في الإسلام، هذا هو مَحكُّ الخلاف بين أهل السنة وبين طوائف أهل الكلام، حيث إنّ أهلَ الكلام جعلوا أوَّل الواجبات التي تجب علىٰ العبد النّظر أو القصد إلىٰ النظر، يعني قالوا أن المكلَّف إذا بلغ سنّ الاحتلام أو سن التكليف يجب عليه أن ينظر أو أن يقصد إلىٰ النظر حتىٰ يُدرك حدوث العالم؛ فإن أدرك حدوث العالم علِم أن لهذا العالم مُحدِث هو الذي أحدثه ومن ثمَّ يُقرّ بالربّ، وقد بنوا هذا التقعيد علىٰ أنّ الإيمان بالربوبية نظريًا مُكتسب، ليس فطريًّا ضروريًّا كما قال أهل السنة، وأهل السنة قالوا إنّ الإقرار بربوبية الله فطري ضروري، فطر الله الناس أجمعين عليه، هم يعْلمونه بالضرورة؛ وأما المتكلمون قالوا لا، قالوا إن معرفة الرب أو الإقرار بربوبية الله تأتي عن طريق النظر ثم الاكتساب، ومن ثمَّ فسروا الإله بالقادر علىٰ الاختراع، أي بالخالق الذي يخلق؛ فإذا أقرّ العبد أن الله هو الخالق الذي يقدر علىٰ أن يخترع وأن يبدع صار موحداً عند علماء الكلام، وعليه لم يهتموا ولم يشيروا إلىٰ توحيد العبادة، وصاروا يفسرون التوحيد بتفسيرٍ لا علاقة له من قريب ولا من بعيد بتوحيد العبادة، وكما قال أبو الفتح الشهرستاني صاحب كتاب (المِلل والنِحِل) في كتابه (نهاية الأقدام في علم الكلام) في الصفحة التسعين، تحت القاعدة الثالثة في التوحيد قال:

«وفيه الرد علىٰ الثّنوية وتستدعي هذه المسألة ذكر الوحدانية ومعنىٰ الواحد» ، قال: «قال أصحابنا الواحد هو الشيء الذي لا يصح انقسامه إذ لا تقبل ذاته القسمة بوجه، ولا تقبل الشركة بوجه؛ فالباري تعالىٰ واحد في ذاته لا قسيم له، وواحد في صفاته لا شبيه له، وواحد في أفعاله لا شريك له»؛

ولكنه لم يتكلم علىٰ أنه كذلك واحد في استحقاق العبادة فلا يُعبد غيره، يعني ما ذكره ينحصرُ فقط في مفردات الربوبية؛ وأما في قوله "واحدٌ في صفاته لا شبيه له" كما هو معلوم أن الغرض من هذا عند المتكلمين هو التأويل أو التعطيل، حيث نفىٰ الشَّبه فقط؛ أما أهل السنة قالوا إننا نثبت صفات الله بلا تشبيه وبلا تمثيل وبلا تكييف وبلا تعطيل؛ أما الأشاعرة والمعتزلة ومن علىٰ شاكلتهم دائما يدندنون حول نفي الشَّبه فقط كي يعمدوا بعد ذلك إلىٰ تعطيل بعض الصفات أو كل الصفات، وهذا المبدأ عند المتكلمين مأخوذٌ من الفلاسفة، ولذلك نقل هنا الشهرستاني قول الفلاسفة وهو قول معقّد، حتىٰ بعض المتخصصين في تدريس هذه المشكلات التي يسمونها بالتوحيد من أساتذة الأزهر ومن غيره لا يفهمون هذا الكلام ولا يفهمون مرامه؛ فقالوا أن الفلاسفة قالوا: "هو واجب الوجود بذاته لا يجوز أن يكون أجزاء كمّية، ولا أجزاء حدٍّ قولاً، ولا أجزاء ذات فعلاً، ووجودا وواجب الوجود، لن يُتصور إلا واحدًا من كل وجه؛ فلا يُتصور ولا يتحقق موجودان" يعني إلىٰ آخر ما قالوا. كلام لا طائل تحته ولا علاقة له بدعوات المرسلين والأنبياء، وقد فنّد هذه الترهات ورد عليها شيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله تعالىٰ– في أكثر كتبه.

واعلم أن الله –سُبْحَانُهُ وَتَعَالىٰ– قد أثبت هذا الأصل أو هذه القاعدة التي ذكرها المصنف –رَحِمَهُ اللهُ تَعَالىٰ– في أكثر من آية في كتابه، نحو هذه الآية التي استدل بها المصنف ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءِ﴾(15) وتأمّل تعبير الله –عَزَّ وَجَلَّ– بقوله "أولياء" هو التعبير نفسه التي يعبّر به المشركون وجهلة

(15) [الزمر : 3]

المسلمين أنهم يقولون عن المعبودات التي يعبدونها من دون الله أنهم أولياء، ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ هؤلاء جعلوا الولاية لهذه المعبودات وبهذا أشركوا بالله -عَزَّ وَجَلَّ- في العبادة، والله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ- قال ﴿فَاللهُ هُوَ الْوَلِيُّ﴾[16] هو سبحانه هو الذي يتولىٰ عباده ،الولاية الحقيقية لله، فالذين اتخذوا من دون الله أولياء ما هي حجتهم؟ هل كانت حجتهم أنهم اعتقدوا في هؤلاء الأولياء أنهم لهم صفات الربوبية التي ذكرناها؟ لا، هم يعلمون أن هؤلاء الأولياء ليسوا أربابًا أو ليسوا يتصفون بصفات الرب، يعلمون هذا جيّدًا وإنما احتجّوا بحجة واهيةٍ وأنهم قالوا ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَىٰ اللهِ زُلْفَىٰ﴾[17] هذه حجة المشركين في كل زمان ومكان، الذين أشركوا في الإلهية، في العبادة، وقَلّما تجد من أشرك في الربوبية قلّما، هذا يندر وجوده، حتىٰ الذين أشركوا في الربوبية في ظاهر أمرهم كان هذا عن جحود لفطرتهم كما حكا سبحانه عنهم ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾[18] وهذه الحجة من المشركين هي قائمة علىٰ اعتقاد فاسد في الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ-، وأنه سبحانه لن يقبل دعاءهم ولن يقبل توسلهم ولن يقبل استغاثتهم إلا بواسطة وإلا بشافع -كما سوف يأتي- يشفع لهم عنده -سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ-.

وبلا شك، -الله -سُبْحَانُهُ وَتَعَالىٰ- يحب أن يتوسل إليه عباده؛ ولكن أن يتوسلوا إليه بما شرع لهم من الوسائل المشروعة التي هي ليست من البشر أو ليست من الملائكة وليست من الشجر أو الحجر إنما الوسائل المشروعة التي بينها -سبحانه- أن يتوسلوا إليه بأسمائه وصفاته، أو أن يتوسلوا إليه بأعمالهم الصالحة.

---

(16) [الشورى : 9]

(17) [الزمر : 3]

(18) [النمل : 14]

ومن الآيات الأخرىٰ التي بيّن فيها -سبحانه- هذه القاعدة قوله تعالىٰ ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾(19) وهذا أصرح وأوضح، ولذلك عقّب سبحانه بقوله ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾، وكذلك قوله تعالىٰ سبحانه ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾(20)

وأيضا كما في قوله تعالىٰ ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ آللهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾(21)

هذه الآيات ومثلها تثبت هذه القاعدة أنّ المشركين لم يكفروا بالله ربـًا إنما كفروا بالله إلهـًا واحدا يستحق العبادة؛ فعلينا أن نحفظ هذه القاعدة وأن نفهم كُنْهَهَا حتىٰ نقف علىٰ أرضٍ راسخة في دعوتنا، وبهذا نتمكن من إقامة الحجة علىٰ المتصوّفة وعلىٰ الشيعة وعلىٰ كل فرق أهل البدع الذين خالفوا في هذه القاعدة. ننتقل إلىٰ القاعدة الثانية.

قال رحمه الله:

[المتن]

القاعدة الثانية :أنهم يقولون ما دعوناهم وتوجهنا إليهم إلا لطلب القربة والشفاعة فدليل القربة قوله تعالىٰ ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَىٰ اللهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾(22) ودليل الشفاعة قوله تعالىٰ ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ﴾(23)

---

(19) [الزخرف : 87]
(20) [العنكبوت : 61]
(21) [النمل : 59]
(22) [الزمر:3]
(23) [يونس:18]

والشفاعة شفاعتان: شفاعة منفية وشفاعة مثبتة؛ فالشفاعة المنفية ما كانت تطلب من غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله والدليل قوله تعالىٰ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فِيهِ وَلا خُلَّةٌ وَلا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾(24)

والشفاعة المثبتة هي التي تطلب من الله والشافع مكرّم بالشفاعة والمشفوع له من رضي الله قوله وعمله بعد الإذن كما قال تعالىٰ ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾(25)

[الشرح]

القاعدة الثانية وهي متّممة لما جاء في القاعدة الأولىٰ في بيان أسباب شرك المشركين وذكر الشُّبهة التي احتجوا بها علىٰ شركهم؛ [...] في القاعدة الأولىٰ احتج المصنف بقوله تعالىٰ في سورة يونس علىٰ إثبات أن المشركين أقروا بمفردات الربوبية التي ذكرناها ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾ وقيل لهم: ﴿أَفَلا تَتَّقُونَ﴾

وفي القاعدة الثانية بيّن كما ذكرنا حجة هؤلاء المشركين الذين أقروا بكل هذه المفردات والذين أقروا بربوبية الله، ما دمتم أقررتم بربوبية الله سبحانه لماذا أشركتم به؟! فأدلوا بهذه الحجة الداحضة قالوا ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَىٰ اللهِ زُلْفَىٰ﴾؛ فكانت عبادتهم لهؤلاء الأولياء علىٰ سبيل أو علىٰ جهة القربىٰ والشفاعة والوساطة عند الله، هم لم يتوجّهوا إلىٰ هذه المعبودات بالعبادة لأنهم يعتقدون أن هذه المعبودات تستحق هذه العبادة لأنّها هي التي تخلق وترزق وتحي و[تميت]، لا، هم يعلمون أن هذه

(24) [البقرة:254]
(25) [البقرة:255]

المعبودات لا تستحق هذا [..] يعني يعلمون أن هذه المعبودات ليس لها فضل عليهم في الخلق أو الرزق أو في الإحياء أو الإماتة أو في تدبير الأمر أو في إصلاح أحوالهم، هم إنما يعتقدون أن هذه المعبودات التي تتمثل في الأنبياء أو في الصالحين أو في الملائكة أو في الأصنام المنصوبة أنّ لها فضلاً في إيصال دعائهم وتوسلهم إلىٰ الله -سُبْحَانُهُ وَتَعَالىٰ-، وأنها تحقّق لهم ما يطلبونه من الطلبات، وتيسّر لهم ما يتمنونه من الأماني ومن الآمال، فصاروا يعلّقون رجائهم وخوفهم ومحبّتهم لهذه المعبودات لمّا اعتقدوا فيها هذه الاعتقادات الفاسدة؛ فهذا وجه شركهم، ليس وجه شركهم أنهم أثبتوا الفضل لهذه المعبودات من ناحية الخَلق أو من ناحية الرزق والقيام علىٰ الأمور، لا؛ ولكن الأمر كما ذكرنا.

وقد توجد طائفة من المشركين يعبدون هذه المعبودات استقلالاً لا علىٰ جهة الوساطة مع اعتقادهم أن هذه المعبودات لا تخلق ولا ترزق؛ فهناك من النصارىٰ من يعبد المسيح -عليه السلام- استقلالاً لا علىٰ سبيل الوساطة أو طلب الشفاعة، مع اعتقادهم أن المسيح -عليه السلام- لم يخلقهم، وإنما كما هو معلوم عندكم هم اعتقدوا أن المسيح ثالث ثلاثة و أن الربّ قد تمثل فيه إلىٰ آخر ما عندهم من معتقدات فاسدة، أو وصل الحال ببعضهم أن قال أن المسيح هو الله، هم في حقيقة الأمر ما عبدوا الله إنما عبدوا المسيح استقلالاً، ليس من أجل أن يكون واسطة بينه وبين الله. وكما تعلمون أن بعضهم قال إن المسيح هو ابن الله ومن أجل هذا عبدوه لأنه يُعد ابنـًا للإله فيُستحق أن يعبد مثل أبيه، هم يعبدون الأب والابن، هم أشركوا بالله في العبادة وتوجهوا بهذه العبادة لهذا الشريك استقلالا؛ فكما يعبدون الأب يعبدون الابن، وكذلك يعبدون مريم -عليها السلام- لأنها حملت هذا الابن الإلهي، كما قال الشيخ صالح آل الشيخ -حفظه الله تعالىٰ- في شرحه ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا﴾ قال:

هذا حصر يسمىٰ عند علماء البلاغة حصر قلب إضافي، ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَىٰ اللهِ زُلْفَىٰ﴾ يعني ما نعبدهم لعلة من العلل إلا لأجل التقريب -أي التقرب إلىٰ الله عن طريقهم- هم حصروا ما أرادوا في

القربىٰ من الله، هم أرادوا ما عند الله -عَزَّ وَجَلَّ-، هم إذا توجّهوا لهذه الآلهة الباطلة إرادةً لما عند الله ولم يكن التقرب إليهم استقلالا، إنما أرادوها زلفىٰ وقربىٰ إلىٰ الله، ولذلك ذكر الله سبحانه عنهم أيضا الحجة نفسها بوجه آخر في قوله تعالىٰ ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ﴾ اعتقدوا أن هذه المعبودات شفعاء تشفع لهم عند الله، يشفعون لهم عند الله.

والشفاعة لغة كما قال ابن فارس في معجم (**مقاييس اللغة**): «الشين والفاء والعين -أي في (شفع)- أصل صحيح يدل علىٰ مقارنة الشيئين ومن ذلك الشفع خلاف الوتر، تقول كان فرداً فشفعته، أي جعلتَ له قرينًا أو جعلت له شيئا آخر اقترن به».

وقال ابن الأثير في (النهاية): «قول شفع يشفع شفاعةً وهو شافع وشفيع، والمُشفِّع الذي يَقبل الشفاعة، والمشفَّعُ الذي تُقبلُ شفاعته».

والشفاعة اصطلاحًا أو شرعًا: هو سؤال الشافع الخير لغيره أو طلب الشافع الخير لغيره، أو يقال بوجه آخر: أنّ الشفاعة هي توسّط الشافع لغيره لجلب نفعٍ أو لدفع ضرٍّ.

والشفاعة كما بين المصنف شفاعتان: شفاعة منفية وشفاعة مثبتة.

الشفاعة المنفية تختلف عن المثبتة في أن المثبتة لها شروط إذا انتفت هذه الشروط كانت منفيةً، والشروط التي بيّنها سبحانه في كتابه للشفاعة المثبتة هي ما يلي:

الشرط الأول: إذن الله تعالىٰ للشافع لقوله تعالىٰ ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾.

والشرط الثاني: رضاه سبحانه عن المشفوع له لقوله تعالىٰ ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ﴾[26]

---

(26) [الأنبياء : 28]

والشرط الثالث: قدرة الشافع علىٰ الشفاعة، وهذه القدرة لا تكون إلا بأن يأذن الله له؛ فهي كأنها تدخل في الشرط الأول، ويدلّ علىٰ هذا قوله تعالىٰ ﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[27]

هؤلاء الأولياء لا يملكون الشفاعة لأن الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ- لم يعط لهم هذه الشفاعة ولم يأذن لهم بهذه الشفاعة.

والشرط الرابع هو شرط بديهي كما يقال يعني لا يُحتاج إلىٰ ذكره، أن يكون هذا الشافع علىٰ الإسلام أي علىٰ التوحيد، أن يكون مسلمًا موحداً، بلا شك لا تصلح شفاعة المشرك، كما قال سبحانه ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾[28].

وإذا انتفت هذه الشروط صارت الشفاعة شفاعةً منفيةً، وهي التي نفاها سبحانه عن المعبودات التي عُبدت من دونه [يعني] المشركين، ويدخل في الشفاعة المنفية الشفاعة فيما لا يقدر عليه إلا الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ-، يعني إذا أنت طلبت مغفرة الذنب من هذا الذي أنت تريد أن تشفع به عند الله كي يشفع لك عند الله بهذا، ولا يقدر علىٰ هذا ولا يقدر أن يوصّل هذا الطلب إلىٰ الله، يعني لا يقدر أن يغفر الذنب استقلالاً ولا حتىٰ عن طريق الوساطة، لا يملك أن يُوصّل الطلب إلىٰ الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ- هذا في الدنيا، طبعًا الشروط التي ذكرناها للشفاعة هذه لا تتحقق إلا في الآخرة، في الشفاعة المثبتة، هذه الشفاعة المثبتة لا تتحقق في الدنيا إنما تتحقق في الآخرة؛ أما في الدنيا إن الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ- لا يأذنُ لأحد أن يشفع عنده في أن يطلب رفع العذاب مثلاً عن فلان أو في أن يطلب مغفرة ذنب فلان، هذا لا يملكه أحد في الدنيا إنما يأذن الله بهذا في الآخرة إذا قام الناس لرب الأرباب، إذا قام الناس بين يدي

---

(27) [الزخرف : 86]

(28) [غافر : 18]

الحكَم العدل للفصل بين العباد، يأذن الله سبحانه للرسل وللأنبياء وللمؤمنين وللملائكة أن يشفعوا عنده فيمن هو رضي سبحانه أن يُشفع له. وكما قال الشيخ صالح آل الشيخ هنا في شرحه:

«الشفاعة هي الطلب، والمطلوب منه إما أن يكون حيـًا حاضراً وإما أن يكون ميتـًا، والحيُّ الحاضرُ في الدنيا أو في عرصات القيامة جاءت الأدلة بجواز طلب الشفاعة منه كما جاءت بذلك النصوص الكثيرة؛ وأما الميت فإنه ليس في دار عمل وليس في دار طلب».

وأمّا في قوله إن الشفاعة هي الطلب والمطلوب منه إما أن يكون حيـًا حاضراً وإما أن يكون ميتا، قال الحي الحاضر في الدنيا أو في عرصات القيامة، طبعـًا الحي الحاضر في الدنيا يملك فقط الدعاء، يعني لما جاء هذا الأعمىٰ إلىٰ الرسول -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَعلىٰ آله وسَلَّمَ- وطلب منه أن يدعو له أن يعيد الله إليه بصره فدعا الرسول -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فهذا يُعدُّ طلبًا من الله -سُبْحَانُهُ وَتَعَالىٰ-، وأمر الرسول -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وسَلّمَ- هذا الأعمىٰ أن يدعو بالدعاء المعروف الذي به يرُد الله عليه بصره، فهذا قد يقال أنه من قبيل الشفاعة التي [بإذن من الله] أن الرسول -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وسَلّمَ- أنه شفع لهذا الأعمىٰ بدعائه له؛ ولكنها ليست هي الشفاعة التي أثبتها الله لرسوله في عرصات القيامة وهي الوسيلة، الدرجة العالية التي يُعطاها الرسول -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وسَلّمَ-، الشفاعة العظمىٰ أولاً ثم ما تلاها من أنواع الشفاعة في عرصات القيامة.

ولذلك نقول إن الشفاعة المثبتة تتلخص فيما يلي:

الإذن للشافع أن يشفع، والرضا عن الشافع، والرضا عن المشفوع له، ولذلك قال سبحانه ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ﴾[29] وكما هو معلوم في الأحاديث التي تواترت في الشفاعة أن الشفاعة يوم القيامة لا تكون إلا لمن مات علىٰ التوحيد، لمن مات علىٰ لا إله إلا الله.

---

(29) [النجم:26]

وأمّا الشفاعة التي تكون بين البشر نحو أن تقول لفلان "اشفع لي عند فلان" هذه تصحّ أو تكون مقبولة بشرطين:

الشرط الأول: كما قال الشيخ زيد المدخلي -حفظه الله- في شرحه أبرز الفوائد: "أن يكون داخلا تحت قدرة البشر وأن يكون حاضراً أو في حكم الحاضر"، الشرط الأول أن يكون داخلا تحت قدرة البشر، والثاني أن يكون هذا الذي طلب منه الشفاعة أن يكون حاضراً لا أن يكون غائبًا، أو أن يكون في حكم الحاضر، قد يكون غائبا نعم بجسده؛ ولكنه في حكم الحاضر أنه هناك وسيلة اتصال بينك وبينه من هذه الوسائل الحديثة تجعله في حكم الحاضر؛ لكن نحن نتكلم عن الذين يطلبون الشفاعة من غير الحاضرين من غير أسباب ممكنة يعقلها البشر، نحو الذين يطلبون الشفاعة من الأموات في القبور، هذا ليس حاضراً وليس في حكم الحاضر، ولا دليل علىٰ أنه يسمع هذا الطلب، أو أنه يقدر علىٰ أن يحقق هذه الشفاعة. إن كان حاضراً بجسده في القبر؛ ولكنه ميت لا يملك أن يحقق طلب هذا الطالب.

وكانت هناك فائدة أردت أن أضيفها إلىٰ شرح القاعدة الثانية، وهي عبارة عن سؤال قد كنت توجهت به إلىٰ فضيلة الشيخ عبيد بن عبد الله الجابري -حفظه الله تعالىٰ-، وذلك حين قراءتي للمتن عليه، وهي شبهة كان يثيرها البعض؛ فأحببنا أن نعرف جوابها من الشيخ عبيد، وكان لفظ السؤال:

هناك شبهة -حفظكم الله- تتعلق بمسألة الشفاعة، وهي رضا الله عن المشفوع له، وهي تقول: ما هي فائدة الشفاعة إذا رضي الله عن المشفوع له؟ يعني إذا رضي الله عنه فما فائدة الشفاعة مع رضا الله - عزّ وجلّ -؟

هٰذه الشبهة يثيرها البعض، وهي نابعة بلا شك من فكر المعتزلة الذين ينكرون شفاعة النبي -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-.

فكانت إجابة الشيخ عبيد –حفظه الله– كالتالي:

قال: « مَنشأ هـٰذا إما الجهل وإما التلبيس؛ إمّا الجهل بالسنة، وإمّا الجهل بفهم كتاب الله وسنة رسول الله –صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– علىٰ ما فهمه السلف الصالح، أو التلبيس وهـٰذا يكون من أهل الأهواء؛

والجواب عن هـٰذا أن هـٰذا الذي رضي الله عنه استحق دخول النار لذنوب اقترفها أغضبت الله عليه، ليس غضبًا كما يغضب الله عن الكفار. ولهـٰذا الكفار وأهل النفاق الاعتقادي محرومون من الشفاعة، ليس لهم منها نصيب أبدًا لأنهم من أهل النار، هم أهل النار الذين هم أهلها.

وإنّما الشفاعة تكون في قوم استحقوا دخول النار لذنوب اقترفوها، والله –عز وجل– راض عنهم من حيث أنهم علىٰ التوحيد وعلىٰ إيمان به؛ إنّما غضب عليهم لذنوب اقترفوها فشَفّع فيهم من رضي عنهم؛ –هـٰذا هو موطن المسألة– فشَفّع فيهم من رضي عنهم من الملائكة والنبيِّين ومن صالح عباده؛ هو لم يغضب عليهم الغضب التام كغضبه علىٰ الكفار والمنافقين؛ وإنما غضب عليهم لذنوب اقترفوها استحقوا بها دخول النار، فمنهم من يمتنّ الله عليهم بالشفاعة قبل دخول النار، ومنهم من لا يأذن الله له في الشفاعة حتىٰ يأخذ شيئًا من عقابه، وهـٰذا كما أنه ثابت في الشرع ثابت كذلك بالعقل، فقد يؤتىٰ لحاكمٍ برجل استحق عنده القتل أو الحبس، فيأتي مَرْضِيٌّ عند هـٰذا الحاكم –ولله المثل الأعلىٰ– فيشفع فيه إمّا برفع العقوبة بالكلّية أو برفع بعضها، وقد لا يشفّعه أي قد لا يقبل شفاعته هـٰذا الحاكم، وقد لا يأذن له حتىٰ يستوفيَ منه العقوبة –ولله المثل الأعلىٰ–».

وانتهت إجابة الشيخ عبيد –حفظه الله–، والكلام واضح لا يحتاج إلىٰ غير ذلك بارك الله فيكم.

[المتن]

قال رحمه الله:

القاعدة الثالثة: أَنَّ النَّبِيَّ –صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– ظَهَرَ عَلَىٰ أُنَاسٍ مُتَفَرِّقِينَ فِي عِبَادَاتِهِمْ، مِنْهُمْ مَنْ يَعْبُدُ

الْمَلائِكَةَ، وَمِنْهُم مَنْ يَعْبُدُ الأَنْبِيَاءَ وَالصَّالِحِينَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْبُدُ الأَشْجَارَ وَالأَحْجَارَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْبُدُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ، وَقَاتَلَهُمْ رَسُولُ اللهِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَلَمْ يُفَرِّقْ بَيْنَهُمْ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّه﴾(30).

وَدَلِيلُ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ؛ قَوْلُهُ تَعَالىٰ: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لاَ تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلاَ لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾(31).

وَدَلِيلُ الْمَلائِكَةِ؛ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلاَ يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُواْ الْمَلاَئِكَةَ وَالنِّبِيِّيْنَ أَرْبَابًا﴾ الآيَة(32).

وَدَلِيلُ الأَنْبِيَاءِ؛ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَـهَيْنِ مِن دُونِ اللّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ الآيَة(33).

وَدَلِيلُ الصَّالِحِينَ؛ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أُولَـئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ الآيَة(34).

وَدَلِيلُ الأَشْجَارِ وَالأَحْجَارِ؛ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّىٰ 19 وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَىٰ 20﴾(35)

[الشرح]

في هٰذه القاعدة الثالثة بيّن المصنف -رحمه الله تعالىٰ- أمرًا هامًّا يتعلق بأحوال المشركين، قال في بيانه الإمام ابن باز -رحمه الله تعالىٰ- في تعليقه علىٰ القواعد الأربع:

---

(30) [الأنفال: 39]

(31) [فصلت: 37]

(32))[آل عمران: 80]

(33) [المائدة: 116]

(34) [الإسراء: 57]

«ثم ذكر المصنف في القاعدة الثالثة أنّ النبي -صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وسلم- ظهر في أُناس شركهم مُتفرّق، فمنهم من يعبد الأنبياء، ومنهم من يعبد الملائكة، ومنهم من يعبد الصالحين، ومنهم من يعبد الجنّ، ومنهم من يعبد الأشجار والأحجار، ومنهم من يعبد الشمس والقمر، فقاتلهم جميعًا، وقاتلهم الصحابة ولم يفرّقوا بينهم» وذكر الآيات الدالّة علىٰ ذلك؛ فهٰذه المعبودات المتنوعة لا تغيّر في حكم هؤلاء، هم سواء في الحكم أي أنّهم كلهم مشركون، فلو عبدوا الملائكة أو عبدوا الأنبياء أو عبدوا الشجر أو عبدوا القبور، لا تفرقة، ما دام توجهوا بالعبادة لغير الله أيّن كان هٰذا الذي توجهوا إليه للعبادة حتىٰ لو كان الرسول نفسه -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-.

لأنّ بعض المسلمين بجهل -وهنا يظهر مَكمن هٰذه القاعدة- يظنّون أنهم إذا توجّهوا بالعبادة إلىٰ الرسول -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أنّ هٰذا يُستثنىٰ من جملة الشرك المُحرّم، يعني يقولون نحن لم نفعل شيئا، نحن نُحبّ الرسول -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-؛ ولكنّهم يعبّرون عن هٰذه المحبّة بعبادة النّبي -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، وإذا قلتَ لهم إنّ هٰذا من الشرك الأكبر أن تتوجّهوا بالدعاء أو بطلب الدعاء من الرسول -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أو أن تستغيثوا به أو أن تطلبوا منه المدد، قالوا: "أتُسوّي بيننا وبين الذين يعبدون الأشجار والأحجار والأصنام؟ هل تُسوّي الأصنام بالرسول صلّىٰ الله عليه وعلىٰ آله وسلم؟!" هكذا يقولون.

"نحن إذا توجّهنا إلىٰ قبر النّبي -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وطلبنا منه الشفاء والمدد وتفريج الكُربات هٰذا لحُبِّنا له ليس لأننا نعبده"، هكذا؛ ولكنّ هٰذا الكلام لا ينفع بشيء، لأن العبرة ليس بمسمّيات [مفرّغة] المضمون، يعني إذا شرب أحد هؤلاء الخمر ثم قال: "أنا لم أشرب خمرا، إنما شربت عصيرا"، هل يغير هٰذا من الحكم شيئا أنّه نفىٰ عن نفسه مسمّىٰ شُرب الخمر؟ لا يغير من الحقيقة شيئا، حتىٰ وإن ادّعىٰ أنه لم يشرب خمرا، قال: "هٰذا ليس خمرا، هٰذا يُعدّ نوعًا من أنواع عصير الشعير، ليس خمرا".

وهكذا، إذا توجّهوا بالعبادة للرسول -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، وقالوا هٰذه ليست عبادة، إنما هٰذه محبة

للنبي -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-.

قلنا لهم هٰذا لا ينفعكم بشيء، لأن هٰذا الذي تفعلونه عبادة لغة وشرعا؛ بل لم تسلموا من الشرك بل أنتم واقعون في الشرك الأكبر، مثلكم مثل من عبد الأصنام وعبد الشجر والحجر، لا فرق بينكم في الحكم عند الله تعالىٰ؛ فأنتم وهم سواء في الشرك إن سويتم غير الله بالله، حتىٰ لو كان هٰذا الغير الرسول -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-.

(**وَالدَّلِيلُ**) يعني علىٰ شرك كل هؤلاء وعلىٰ أنّ الرسول -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قد قاتلهم جميعا دون أن يفرّق بينهم (**قَوْلُهُ تَعَالَىٰ** ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلّه﴾)

هٰذا أمر من الله -سبحانه- لرسوله وللأمة من بعده، يعني لولاة الأمر المُمكنين من بعد الرسول -صلىٰ الله عليه وآله وسلم- أن يقاتلوا المشركين كافّةً بكلّ أشكالهم وصورهم كما فعل الرسول -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، الرسول -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَعلىٰ آله وسَلَّمَ- قاتل كل هٰذه الأصناف، لم يستثن مثلا الذين كانوا يعبدون خليل الله إبراهيم -عليه السلام-، أو الذين كانوا يعبدون الملائكة،لم يقل مثلا إن عُبّاد الملائكة لا نقاتلهم وإنما نقاتل الذين يعبدون الأصنام المنصوبة حول الكعبة، لم يفرّق؛ بل قاتل كل من أبىٰ أن يشهد أن لا معبود بحق إلا الله.

وقوله: ﴿حَتَّىٰ لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾

الفتنة كما قال جمهور المفسّرين هي الشرك، ﴿حَتَّىٰ لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ أي حتىٰ لا يكون شرك في الأرض.

الغاية من القتال تطهير أرض الله من الشرك بالله، وهٰذه هي النيّة التي يجب أن تكون عند كل مقاتل يقاتل المشركين تحت راية مسلمة، لا يكون قصده أو لا تكون نيّته أنّه يقاتل من أجل الوطن، أو من أجل القوميّة، أو من أجل الشعارات الكاذبة؛ بل يقاتل من أجل أن يُطهّر الأرض من الشرك وأن يُعليَ بالتالي كلمة الله علىٰ هذه الأرض.

وإذا ما [...] أن تصحب هٰذه النيّة نيّة أخرىٰ وهي أنه يقاتل من أجل أن يُنجي المسلمين من بطش المشركين، يعني أن يدافع عن بلد مسلم حتىٰ لا يبطش به المشركون، هٰذه تختلف عن نيّة الوطنية، هو يقاتل دفاعا عن أرض مسلمة، أرض التمكين فيها للمسلمين.

وفي قوله (وَدَلِيلُ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ؛ قَوْلُهُ تَعَالىٰ: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لاَ تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلاَ لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾[36])

لماذا خصَّ الشمس والقمر بالنهي عن بالسجود لهما دون بقية المعبودات؟

لأنّ هٰذا كان من عادات المشركين كما بيّن لنا الرسول -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، أنهم كانوا يسجدون للشمس وللقمر، فكما أخرج الإمام مسلم من حديث عمرو بن عبسة رضي الله عنه، وهو حديث طويل يُبيّن أو فيه إسلام عمر بن عبسة وقد اشتهر بهٰذا الاسم (حديث إسلام عمرو بن عبسة) وقد شرحناه في ثلاث خطب تقريبا، في خطب الجمعة.

وهٰذا الحديث في آخره أنّه -رضي الله عنه- سأل الرسول -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قال له (**علّمني يا رسول الله ما ينفعني**)؛ [فتابعه] علىٰ الصلاة فأجابه -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وبيّن له كيف يصلّي وبيّن له مواقيت الصلاة؛ فقال له -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: ((**صَلّي الصبح حتىٰ تطلع الشمس، حتىٰ ترتفع في السماء ثم أقصر عن الصلاة؛ فإنّ الشمس تطلع حين تطلع بين قرني شيطان وحينئذٍ يسجد لها الكفار**))

وأيضا قال بنحوه عند غروب الشمس، فقال: ((**فإنها تغرب حين تغرب بين قرني الشيطان وحينئذ يسجد لها الكفار**))

فبيّن أن الكفار يتحيّنون شروق الشمس وغروب الشمس حتىٰ يسجدوا لها وهم في الحقيقة يسجدون للشيطان؛ لذلك ذكر ابن رجب في شرحه علىٰ البخاري المسمّىٰ بـ(فتح الباري) أن العلماء اختلفوا في قوله (**بين قرني الشيطان**) علىٰ قولين:

---

[36] [فصلت: 37]

- القول الأول: أن المقصود بالقرنين القرنان علىٰ حقيقتهما، يعني أنّ قوله (**بين قرني شيطان**) علىٰ حقيقته وظاهره. وقال بعض القائلين هـٰذا القول: يمكن أن يكون للشيطان قرن يظهر عند طلوع الشمس وعند غروبها. وهـٰذا يعني أنّ الشيطان لا يُظهر هذين القرنين إلا عند الشروق والغروب. وقال بعضهم أن المراد بالقرنين جانبي رأس الشيطان، ومال إلىٰ هذا القول ابن قتيبة رحمه الله تعالىٰ.
- والقول الثاني كما قاله ابن رجب: أنّ المراد بالقرن الأمّة؛ أي أن الشيطان أضل الأمم بسجودهم للشمس أو للقمر، فنسبه، يعني نسب القرن الذي هو الأمّة إلىٰ الشيطان لعبادته إيّاه كقوله تعالىٰ ﴿أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ﴾، فكان قوله (**بين قرني شيطان**) أي أنّ القرن هنا المقصود به حزب الشيطان أو الأمّة التي عبدت الشيطان؛ ولكنه -كما قال ابن رجب- هـٰذا تأويل بعيد والأقرب إلىٰ الصواب الأول.

وهـٰذا ما [استظهره] أيضا النووي -رحمه الله تعالىٰ-، وزاد النووي أنّ الكفار إذا سجدوا للشمس والقمر يعني كأنّ الشيطان يتباهىٰ أو يقول لعصبته "هؤلاء يسجدون لي"، هم يسجدون للشيطان حقيقة. فهـٰذا وجه قوله تعالىٰ: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لاَ تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلاَ لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾

(وَدَلِيلُ الْمَلائِكَةِ؛ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلاَ يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُواْ الْمَلاَئِكَةَ وَالنِّبِيِّيْنَ أَرْبَابًا﴾ الآية[37])

كما قال ابن كثير في تفسيره: أي لا يأمركم بعبادة أحد غير الله، لا ملَك مُقرّب ولا نبي مرسل، وهـٰذا أكثر ما وقع فيه المشركون خاصّةً من النصارىٰ ومن اليهود ومن سار سيرهم. وكذلك من هـٰذه الأمة أنه صار بعضهم يعبدون الأنبياء وخاصة الرسول -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، ويعبدون الصالحين كما سوف يأتي.

---

(37) [آل عمران: 80]

(وَدَلِيلُ الأَنْبِيَاءِ؛ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ الآية[38])

فبيّن سبحانه أن النّصارىٰ اتخذوا عيسىٰ وأمّه إلهين من دون الله، وهٰذا يعدّ نوعًا من أنواع الشرك. والرسول -صلىٰ الله عليه وآله وسلم- بُعث ليهدي كل هؤلاء من الشرك، لم يُبعث فقط لمشركي قريش الذين كان يعبد بعضَهم الأصنام؛ لأن هٰذا التصوير ليس بصحيح، الذي يصوّره البعض، أنّ الرسول ينهىٰ فقط إلا عن عبادة الأصنام فقط! البعض بجهل أو بمكر أراد أن يُصوّر دعوة الرسول في هٰذه الصورة، أنه لم يبعث إلا لنهي المشركين عُبّاد الأصنام التي حول الكعبة فقط، وأنه لم يبعث لا للنصارىٰ ولا لليهود ولا لعُبّاد الملائكة ولا لعُبّاد الصالحين ولا لعُبّاد الشجر وغير هٰذا من المعبودات.

فهٰذا تصوير خاطئ بدليل أن الله -سبحانه- بيّن في كتابه الذي أنزله علىٰ رسوله هٰذه الصورة من صور الشرك، وهٰذا يدخل في جملة ما بيّنه لرسوله من صور الشرك الأكبر الذي أمر رسولَه أن يبيّنها لعباده.

وبالطبع المسيح -عليه السلام- يتبرّأ من هؤلاء يوم القيامة كما تبرّأ منهم في الدنيا، ويتبرّأ منهم لما ينزل قبل الساعة ليكسر الصليب ويقتل الخنزير ويتّبع شريعة محمد -صلىٰ الله عليه وآله وسلم-، ويصلّي خلف إمام من الأئمة المسلمين وهو المهدي محمد الذي يسمىٰ باسم النبي، محمد بن عبد الله.

(وَدَلِيلُ الصَّالِحِينَ؛ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أُولَـٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ الآية[39]).

أخرج البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث ابن مسعود -رضي الله عنه- في تأويل هٰذه الآية أنه -رضي الله عنه- قال: (**كان نفر من الجن أسلموا، وكان يعبدهم طائفة من العرب من المشركين** -كانوا

---

[38] [المائدة: 116]

[39] [الإسراء: 57]

يعبدون هؤلاء الجنّ- **فأسلم الجن وبقي هؤلاء علىٰ عبادتهم للجن؛ فأنزل الله سبحانه هـٰذه الآية)**.

وفي قوله: ﴿أُولَـٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾ أي يطلبون عند الله الزلفىٰ والقربة، الوسيلة هي القربة.

والمشركون كانوا يطلبون الوسيلة بالجن أو بالمعبودات التي كانوا يعبدونها من دون الله؛ ولكن المؤمنين يبتغون عند الله الوسيلة بالعمل الصالح الذي يقرّبهم من الله، وكذلك يتوسّلون إلىٰ الله بأسمائه وصفاته -عز وجل-.

وكما قال الشيخ زيد المدخلي -حفظه الله- في تعليقه علىٰ القواعد الأربع:

« أما الصالحين المدعوّون سوف يرون الجن وغير الجن علىٰ اختلاف منازلهم، الذين يدعونهم من دون الله هم بأنفسهم يرجون من الله -تبارك وتعالىٰ- القربة، ويرجون منه المغفرة»، يعني في الوقت الذي يتقرب به المشركون إلىٰ الله بالجن أو بالصالحين، هؤلاء الجن وهؤلاء الصالحون أيضًا يتقربون إلىٰ الله -عز وجل- ويدعونه ويتوسلون إليه بالأعمال الصالحة ويرجون منه المغفرة ويرجون منه قبول العمل الصالح؛ أمّا هم فلا يملكون لأحد قربة ولا زلفىٰ عند الله ولا شفاعة، أي في الدنيا، في جلب المصلحة ولا في دفع ضر؛ بل هم يتسابقون ويتنافسون إلىٰ صالح الأعمال ليحققوا ما ذكره الله من رجاء رحمته وخشية عقوبته ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ -سبحانه وتعالىٰ-، وليؤدّوا ما أمرهم الله بأدائه وليحقّقوا ما ذكره الله -عز وجل-، إلخ.

[المتن]

القاعدة الثالثة: وصلنا إلىٰ قول المصنف رحمه الله:

(ودليل الأحجار والأشجار قوله تعالىٰ: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ(19)وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ﴾[40]

[40] [النجم:19:20].

وحديث أبي واقدٍ الليثي رضي الله عنه قال ((خرجنا مع النبي صلىٰ الله عليه وسلم إلىٰ حُنين ونحنُ حدثاء عهدٍ بكفر، وللمشركين سدرة يعكفون عندها وينوطون بها أسلحتهم يقال لها: ذات أنواط، فمررنا بسدرة فقلنا: يا رسول الله، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط))-الحديث-

[الشرح]

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام علىٰ نبي الهدىٰ محمد ابن عبد الله سيد الأنبياء والمرسلين وعلىٰ آله وأصحابه أجمعين.

أما بعد...

مازلنا نشرح القاعدة الثالثة من القواعد الأربع للإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالىٰ؛ قد وصلنا إلىٰ قوله (ودليل الأحجار والأشجار) حيث كان يتكلم في هذه القاعدة عن المعبودات التي تعبد أو التي كانت تعبد، وما زالت تعبد من دون الله عز وجل، وأن النبي -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَعلىٰ آله وسَلَّمَ-لم يفرّق في قتاله للمشركين بين معبوداتهم؛ فلم يفرّق بين من يعبد الحجر ومن يعبد الشجر، ومن يعبد الصالحين، ومن يعبد الملائكة، كلهم في الشرك سواء بغضّ النظر عن المعبود.

والشرع يسرد الدليل علىٰ بطلان معبود كل طائفة من هذه الطوائف من الكتاب والسنة، فوصلنا إلىٰ ما يتعلق بالأحجار والشجر، واستدل علىٰ بطلان هذه المعبودات بقوله تعالىٰ ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ (19) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ﴾، وهذه المعبودات الثلاثة، اللاّت والعزّىٰ ومناة، تمثّل أمثلة للحجر والشجر الذي كان يُعبد من دون الله، وكانت كلها تُعبد في الجاهلية الأولىٰ قبل بعثة النبي صلىٰ الله عليه وآله وسلم؛

فبالنسبة لـ(اللاّت) قيل إن اللاّت تأنيث لفظ الجلالة لأنّ المشركين أتوا إلىٰ لفظ الجلالة - إلىٰ الله عز وجل - وأنّثوه وجعلوه اللاّت، وكما قال ابن جرير في تفسير هذه الآية:

أَفَرَأَيْتُمْ -أيها المشركون- اللَّاتَ - وهي معنىٰ الله، أُلحقت فيه تاء التأنيث كما قيل (عَمْر) للذكر والأنثىٰ (عمْرة)، وكما قيل للذكر (عباس) وقيل للأنثىٰ (عباسة)، يعني هذا سائد في لغة العرب؛ فكذلك سمّىٰ المشركون أوثانهم بأسماء الله -تعالىٰ ذكره وتقدست أسمائه-، فقالوا من الله (اللات) ومن العزيز (العزّىٰ)، وزعموا أنّهن بنات الله -تعالىٰ الله عما يقولون وافتروا-، فقال -جلّ ثنائه- لهم: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ﴾ أيها الزاعمون أن اللاّت والعزّىٰ ومناة الثالثة بنات الله؛ ألكم الذكر؟! يعني يقول: أتختارون لأنفسكم الذّكر من الأولاد وتكرهون لها الأنثىٰ وتجعلون له سبحانه الأنثىٰ من الأولاد؟! تجعلون له الأنثىٰ التي لا ترضونها لأنفسكم ولكنكم تقتلونها كراهة منكم لهن؟! فكان العرب في الجاهلية يئدون البنات أحياءً كراهة منهم للأنثىٰ، ورغم هذا من انحطاط عقولهم في ذاك الوقت نسبوا إلىٰ الله ما كانوا يكرهونه لأنفسهم وهذا من قبيح شركهم.

و(اللاّت) قيل بتخفيف التاء؛ هي موضع بالطائف، وقيل كانت عبارة عن صخرةٍ مربعة منقوشة عليها بيت الطائف، وله أستار وسَدَنة، وحوله فناء معظّم عند أهل الطائف، فكانت اللاّت عبارة عن حجر أبيض كبير وقد نُقش عليه أو رُسم عليه بيت له أستار وحول هذا الحجر كان السدَنَة الذين كانوا يحمون هذا الإله المزعوم.

وقيل إن كانت بتشديد التاء (اللاتّ) أنه رجل كما جاء هذا عن بن عباس في الصحيح أنه كان رجل يلتّ السويق للحاج أي يخلط الدقيق بالماء للحجاج، كان رجلاً صالحا يلت السويق كي يطعمه للحجاج؛ فلما مات بنوا علىٰ قبره بيتا وأرخوا عليه الستائر وصار يُعبد من دون الله وسمي باللاّت.

ولا تعارض ولا تنافي بين القولين يعني يحتمل كليهما في النهاية هم عبدوا مخلوقا من دون الله سواء كان حجرا أو كان بيتا أو كان شيئا نصب علىٰ قبر رجل صالحا إنهم في النهاية عبدوا هذا اللات من دون الله.

ورواية بن عباس تدل علىٰ أن من العرب من كان يعبد الصالحين في أقوالهم كما كان الأمر علىٰ زمن نوح -عليه السلام- وهذه كانت بداية الشرك في بني آدم، فالذين يقولون إن بناء المقامات والبيوت والمشاهد علىٰ قبور المعظمين والصالحين هذا أمر لا بأس به ولم يكن هكذا شرك المشركين الأوائل، فهذا مردود لِما جاء عن أصحاب النبي -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَعلىٰ آله وسَلَّمَ- عن ابن عباس رضي الله عنه هو الذي أيضا بيّن -كما أخرج هذا البخاري في الصحيح- أن أول شرك حدث لبني آدم في زمن نوح عليه السلام كان بسبب أنهم عظموا ناسا صالحين فلما ماتوا أوحىٰ إليهم الشيطان أن ينصبوا علىٰ قبورهم أنصابا ليتذكروا أعمالهم، فلما مات أولئك وتنسّخ العلم عُبدت هذه الأنصاب؛ فالشاهد أن اللات هذا كان حجرا أو كان بيتا لرجل معظّم صار يُعبد من دون الله.

﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ﴾

(العزّىٰ) كما قال ابن جرير كأنهم أخذوها من اسم الله العزيز، أخرج النسائي في الكبرىٰ وأبو نعيم في دلائل النبوة وكذلك البيهقي في دلائل النبوة وأبو يعلىٰ في مسنده بسند جيد عن أبي الطفيل عامر ابن واثلة أنه قال: لمّا فتح رسول الله -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَعلىٰ آله وسَلَّمَ- مكة، أرسل خالد ابن الوليد إلىٰ نخلة وهي العزىٰ وكانت علىٰ ثلاث سَمُرات -السمُرة هي الشجرة- فقطعها خالد ابن الوليد،قطع السمرات -أي قطع النخلة- وجاء إلىٰ النبي صلىٰ الله عليه وسلم فقال: ((**ارجع فإنك لم تصنع شيئا**)) فعاد خالد إلىٰ موضع العزَّىٰ هذا، موضع هذه النخلة فأبصرته سدنتها وهم حجبتها، حجبة هذه النخلة المعظمة العزّىٰ، وأمعنوا في الجبل وأخذوا ينادون "يا عزَّىٰ يا عزَّىٰ" فتبعهم خالد بن الوليد رضي الله عنه، فوجد امرأة عريانة ناشرة شعرها تحنو -وفي رواية تحثو - التراب علىٰ رأسها فعمّمها خالد بسيفه حتىٰ قتلها؛

فعاد إلىٰ النبي صلىٰ الله عليه وسلم فأخبره فقال صلىٰ الله عليه وسلم: ((**تلك العزَّىٰ**)) تلك العزَّىٰ التي قتلها خالد رضي الله عنه .

كانوا يعظمون هذه النخلة التي يسمونها بالعزَّىٰ، وفي الحقيقة كان القائم عليها أو كان ورائها هذه المرأة التي إما أن تكون ساحرة أو كانت من الشياطين الله أعلم، الشاهد أنها هي التي كانت تُعبد وكان السدنة الذين يعظمون هذا المكان يعرفون هذه العزَّىٰ، فلما ولّوا خوفًا من خالد أخذوا ينادون "يا عزَّىٰ يا عزَّىٰ" فوجد هذه المرأة حتىٰ قتلها، وبهذا قُضي علىٰ هذا الإله المزعوم.

﴿وَمَنَاةَ﴾ قيل إنها سميت بهذا الاسم أخذوها من اسم الله المنان، وقيل لكثرة ما كان يُراق عندها من الدماء تقربا إليها،لكثرة ما يُراق يعني ما يُمنىٰ ، يُمنىٰ يعني يُراق، فسُميت بالمناة لكثرة ما يُمنىٰ أي يُراق عندها من الدماء تقربا إليها.

فهذه الآلهة الثلاثة تعدّ مثالا للحجر والشجر الذي كان يُعبد في الجاهلية من دون الله، وواضح أن النبي -صلىٰ الله عليه وسلم- لم يفرّق، يعني أرسل خالدا لاقتلاع هذه النخلة وهذه السمُرات وقتل هذه المرأة التي كانت تعبد من دون الله وأرسل فلانا لهدم هذا البيت أو لهدم هذه الصخرة اللاّت، وأرسل غيره لهدم هذا أو ذاك من الآلهة، وأرسل عليّا كي يطمس الصور التي كانت تُعظم في الكعبة من دون الله، طبعا وهدم -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَعلىٰ آله وسَلَّمَ- بنفسه الأصنام التي كانت منصوبة حول الكعبة لما دخل مكة، هدمها بعود في يده وهو يقرأ قوله تعالىٰ ﴿جَاء الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾[41]، فحارب كل أنواع الأصنام وحارب كل المعبودات الباطلة التي كانت تعبد من دون الله لم يفرق بين معبود وآخر.

[41] [الإسراء : 81]

وفي حديث أبي واقد الليثي رضي الله عنه؛ وحديثه صحيح أخرجه الترمذي وأحمد ومحمد ابن نصر المروزي وغيره، ويعتبر مثالا جيدا يبيّن منهج النبي -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَعلىٰ آله وسَلَّمَ- في تعامله مع المدعوين الذين يُعتبرون حديثي عهد بالدعوة، هل نسكت عن الشركيات التي قد يقعون فيها لجهلهم من باب تألفهم؟ هذا سؤال يوجه كثيرا إلىٰ أهل العلم في هذا الزمان، نعم إذا دخل بعض المشركين أو الكفار للإسلام من أهل أوروبا من أهل أمريكا ويعتبرون حديثي عهد بإسلام ومازالت عندهم متعلقات شركية كانوا يفعلونها في كفرهم وفي شركهم، فإذا رأىٰ الداعية فلانا من هؤلاء يفعل شيئا من هذا الشرك هل يسكت عن شركه هذا أو يسكت عنه ولا يبين له من باب تألفه أم الواجب عليه أن يبين؟ حديث أبي واقد هنا رد واضح علىٰ هذا السؤال، أنه -عليه وعلىٰ آله الصلاة والسلام- لم يمنعه كون هؤلاء حديثي عهد بإسلام أو حديثي عهد بالكفر أي كانوا قريبا علىٰ الكفر أن ينهاهم؛ بل أن يزجرهم بأشد أنواع الزجر عن صنيع فيه شرك، فقال لهم هذه الكلمة الشديدة لما طلبوا منه أن يعلقوا أسلحتهم بشجرة كي يتبركوا بها كما يصنع المشركون في أسلحتهم، وظنوا أن هذا ليس فيه شيء، يعني استحسنوا فعل المشركين لأنهم كانوا يجهلون بعض مسائل التوحيد وما كانوا بَعْدُ تعلموا التوحيد وعرفوا كل ما يتعلق به من مقتضيات ومن نواهي ومن واجبات؛فلم يسكت عنهم النبي -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَعلىٰ آله وسَلَّمَ-؛ بل قال لهم: ((**قلتم والذي نفسي بيده كما قالت بنو إسرائيل لموسىٰ اجعل لنا إلها كما لهم آلهة**)) ، وهذا يبين أو يؤكد أن الشجرة هذه التي كانت يُتبرك بها من المشركين، المشركون كانوا يعبدونها، كانوا يعلقون أسلحتهم بها طلبا للبركة منها لأنهم كانوا يعبدونها فجعلوها إلها معبودا من دون الله، فسمّىٰ الرسول -صلىٰ الله عليه وسلم- الشيء بما يؤول إليه، يعني هذه الشجرة التي طلبوا أن يعلقوا بها أسلحتهم إذ اعتقدوا فيها النفع والضرّ وجلب الخير، وصاروا يتقربون إليها صارت معبودا، صارت إلهـًا، فسماها باسمها، وهذا من أبلغ الزجر، هذا من بلاغته -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَعلىٰ آله وسَلَّمَ- ومن حسن فصاحته لأنه قد اختُصر له الكلام اختصارا وأوتي جوامع الكلم، فكان يدل علىٰ حكم أو علىٰ الشئ بأقصر عبارة و

بأبلغ عبارة، يعني لم يقل لهم هذه الشجرة التي علق بها المشركون أسلحتهم يُتبرك بها وتُعظم فصارت إلها، اختصر الكلام بعبارة موجزة تؤدي المعنىٰ المطلوب وفيها الزجر المطلوب، ((**قلتم والذي نفسي بيده كما قالت بنو إسرائيل لموسىٰ اجعل لنا إلها**))، هم عرب فهموا مقصده، فهموا أنه قصد أنهم بهذا الطلب سوف يقعون في الشرك.

ولذلك فإن المنتمين إلىٰ هذه الأحزاب البدعية المعاصرة ليسوا علىٰ سبيل النبي -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَعلىٰ آله وسَلَّمَ- في دعوته بلا شك وبلا أدنىٰ ريب، لأنهم يَظَلون السنوات العدد يرون المدعوين وعامة المسلمين حولهم يقعون في الشرك الواضح الصريح ليلا نهارا، ورغم هذا يحتجُّون أو يقولون - وحجتهم داحضة- إننا لا نريد أن ننفر هؤلاء عن دعوتنا إذا نحن دعوناهم إلىٰ ترك هذا الشرك؛ فبلا شك هذا مَحَكٌّ يبيّن لك الداعية السُّنِّي الذي يسير علىٰ السنة وغيره من أدعياء السنة، يعني لا يسوغ أبدا أن يكون داعية يدّعي أنه يسير علىٰ سنة النبي -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَعلىٰ آله وسَلَّمَ- وهو يسكت عن الشرك ولا يبيّن حكم الشرك ، ويترك المدعوين الذين هم تحت يده يرتعون في الشرك هكذا دون أدنىٰ كلمة منه أو دون أدنىٰ إنكار منهم علىٰ هؤلاء كيف يكون سنياً وإن تَشَدَّق يعني ليلا ونهارا أنه يدعو إلىٰ السنة.

فقد ترك الأصل الأصيل الذي تقوم عليه السنة التوحيد أو الأصل الأصيل الذي كان يدعو إليه الرسول -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَعلىٰ آله وسَلَّمَ- التوحيد، ولم يُلق بالا لمن يخالفه؛ بل يؤاكل هؤلاء ويشاربهم؛ بل وقد يناصرهم علىٰ ما هم عليه من باطل، هذه الأحزاب التي تناصر الروافض وتناصر المتصوفة وتطلب من المسلمين أن يتقاربوا معهم هؤلاء ما عرفوا شيئا من طريقة النبي -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَعلىٰ آله وسَلَّمَ- في الدعوة وما فقهوا شيئا من هذا الحديث؛ فالحذر الحذر من هؤلاء وعلىٰ المسلمين أن يتبيّنوا السبيل من الكتاب والسنة، فالمحجّة واضحة ((**تركتكم علىٰ المحجة ليلها كنهارها**)).

[المتن]

قال رحمه الله:

القاعدة الرابعة: أنّ مشركي زماننا أغلظ شركًا من الأوّلين، لأنّ الأوّلين يُشركون في الرخاء ويُخلصون في الشدّة، ومشركو زماننا شركهم دائم؛ في الرخاء والشدّة. والدليل قوله تعالىٰ: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَىٰ الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾[42]. و تمت وصلىٰ الله علىٰ محمد وآله وصحبه وسلم.

[الشرح]

قال الإمام بن باز –رحمه الله تعالىٰ– في بيان هذا الأصل؛ ثم أوضح المصنف القاعدة الرابعة أن شرك الأولين أخف من شرك المتأخرين، فشرك المتأخرين أعظم وأقبح؛ فالأولون شركهم كان في الرخاء ويخلصون في الشدة؛ أما هؤلاء المشركون في غالب البلدان –أي في هذا الزمان– فشركهم دائم في الرخاء والشدة كعبّاد البدوي وعبّاد الحُسين وعبّاد الشيخ عبد القادر الجيلاني وغيرهم، فالواجب الحذر من شرك المشركين في الشدة والرخاء دقيقه وجليله، ومما يدل علىٰ أن شرك المشركين –أي المشركين الأوائل– في الرخاء دون الشدة قوله تعالىٰ: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ﴾[43] ركبوا في الفلك أي قال الشيخ الباخرة أو السفينة ﴿دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾[44] يعني أنهم إذا كانوا ركبوا البحر وخافوا أن يغرقوا في البحر أو أن تغرق سفنهم دعوا الله مخلصين له العبادة، فإذا نـجَّاهم إلىٰ البر وسلموا عادوا إلىٰ الشرك. ويقول –جل وعلا– في أية أخرىٰ ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الْضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَىٰ

[42] [العنكبوت:65]

[43] [العنكبوت : 65]

[44] [العنكبوت : 65]

الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ﴾[45]، وكذا في الآية ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾[46]، هذا كان حال المشركين في الزمن الأول، كان شركهم في الغالب يكون في الرخاء فقط، أما في وقت الشدائد فعند نزول الكرب والمشاكل والفتن والمدلهمّات ينسون آلهتهم الباطلة ويخلصون العبادة لله وحده.

قال الشيخ ابن باز: هكذا حال المشركين عند الشدائد يخلصون لله العبادة، ويعلمون أنه ينجي وأنه لا إله غيره، يعني كانوا يعتقدون في حال الشدة أنه لا إله إلاّ الله بدليل أنهم ما توجهوا إلاّ لله فقط في حال الشدة، فكأنهم كانوا يوحدون في حال الشدّة؛ ولكن هذا لا ينفعهم كحال فرعون -عليه لعنة الله- لما جاءه الغرق قال ﴿قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَـهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَاْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (90) آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾[47] الإيمان عند الغرغرة أو عند بلوغ حد الموت لا ينفع صاحبه.

وقال الشيخ بن باز : إذا جاء الرخاء وقعوا في الشرك مع آلهتهم وأصنامهم، أما هؤلاء المشركون في الوقت الحاضر وفي هذا الوقت فشركهم دائم فلا بصيرة عندهم، فيعبدون غير الله في الرخاء والشدة ولا تمييز عندهم لضعف العقول وغلبة الجهل -نسأل الله العافية والسلامة- .

وكما كان يقول الشيخ عبيد بن عبد الله الجابري حفظه الله تعالىٰ في تعليقه علىٰ هذه القاعدة :إن شرك المشركين في زمننا المعاصر أغلظ من شرك الأوائل لسببين:

السبب الأول: الذي بيّنه المصنف وبيّناه الآن من كلام الشيخ ابن باز- أن المتأخرين من المشركين يشركون في الرخاء والشدّة أما الأوائل كانوا يشركون في الرخاء فقط .

---

[45] [الإسراء : 67]
[46] [لقمان : 32]
[47] [يونس : 90: 91]

السبب الثاني: أن المشركين المتأخرين في هذا الزمان القريب فهم يشركون في أي شيء ، يعني الأوائل كانوا في الغالب يعبدون الملائكة، الجن، الصالحين من الجن أو الصالحين من الإنس الذين ماتوا ثم عكفوا علىٰ ما بنوه علىٰ قبورهم أو نصبوه من أنصاب أو أصنام علىٰ المكان الذي ماتوا فيه أو من باب التذكر لهم؛ لكن في هذا الزمان زاد المتأخرون من المشركين في هذا الزمان أنهم قد يعبدون كلبا أو يعبدون بقرة أو يعبدون حماراً -أعزكم الله-، وهذا حالهم فمشركو أو بعض طوائف المشركين من الهند يعبدون البقر ويعظمونه من دون الله، وبعض جهلة المسلمين يعبدون حمار الشيخ فلان الذي كان يُتبرك به، فلما مات الحمار جعلوا له مقاما وصاروا يتبركون به، فبلا شك هذا أحط وأضل سبيلاً من حال المشركين الأوائل. فمن أجل هذا كان شرك المتأخرين أغلظ من شرك المتقدمين، وفي النهاية كله شرك وكلهم مخلدون في نار جهنم إذا ماتوا علىٰ هذا الشرك - فنسأل الله السلامة والعافية -.

وبهذا نكون انتهينا من الشرح والتعليق علىٰ متن (القواعد الأربع) للإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالىٰ ،وقد تمّ هذا في أربعة مجالس بتوفيق الله وعونه، فنسأل الله عز وجل أن يتقبل منا عملنا وأن يغفر لنا ما جهلنا وما علمنا، وأن يغفر لنا ما أعلنا وما أسررنا وأن يتجاوز عنا برحمته وأن يثبتنا علىٰ التوحيد وعلىٰ السنة حتىٰ نلقاه وهو راضٍ عنا، وصلىٰ الله علىٰ محمد وعلىٰ آله وأصحابه وسلم.